أبو الهـــول يطير

تأليف الأستاذ محمود تيمور بك

للدكتور أحمد فؤاد الأهواني

عندما قرأت هذا العنوان في إعلانات الصحف قلت لعل الأستاذ تيمور يعني بأبي الهول نفسه ، فهو رمز المصري كما هو رمز الصمت . وفي التسمية دلالة لا بأس بها ، فنحن نستعير كثيراً من الأشياء المصرية كالنيل والأهرام وما إلى ذلك دلالة على القومية المصرية . حتى إذا شرعت في قراءة الكتاب اتضح لي أني كنت واهما فيما ذهبت إليه ، لأن المؤلف لا يقصد نفسه بهذه الاستعارة ، وإنما يقصد الطائرة التي أقلته من مصر إلى أمريكا ، أو إلى الولايات المتحدة على وجه التحديد ، بلاد الحضارة والمدنية الحديثة ، أو الدنيا الجديدة كما يقولون..

ولا ريب في أن أمريكا تستحق من الشرق أن يتعرف إليها ، بعد أن أصبحت محط أنظار العالم ، وبعد أن انتقلت إليها الحضارة العلمية الحديثة ، فانتهت إلى كشف القنبلة الذرية ، فسبقت بذلك سائر الدول التي كانت تحمل لواء العلم والمدنية .

كنا إذن في حاجة إلى معرفة هذه الدولة العظيمة الناشئة ، وما فيها من نظم اجتماعية ، وأحوال عمرانية ، وتقاليد يصطبغ بها أهلها ، وعادات تشيع في سكانها .

وهذا ما فعله الأستاذ محمود تيمور بك في كتابه « أبو الهول يطير » . صور فيه رحلته إلى تلك البلاد ، وسجل ما شاهده في السماء والأرض ، والفندق والشارع ، والمطعم والملهى ، وفي كل مكان ، وفي كل ركن من الأركان ، فكان الناقل الأمين الذي شاهد بعين المصري الشرق تلك البلاد الجديدة الغريبة .

فهي إذن رحلة « أمريكانية » كان من الخير أن يصورها لنا المؤلف في هذا الأسلوب الطائر ، حتى نلائم ما عرفناه عن أمريكا التي تحسب حساب السرعة والزمن في كل عمل . فإذا كان ابن بطوطة أو ابن جبير يقطع الواحد منهما الرحلة في أعوام ، فلا عجب أن نجد محمود تيمور يقطعها في شهور . وأن يصل من القاهرة إلى نيويورك في ساعات .

نقول إن عين الشرق هي التي سجلت ما في هذا الكتاب من كتب وأطياف وظلال . والشرق مؤمن بطبعه ، وكان الشرق مهبط الأديان منذ قديم الزمان . انظر معي إلى ما يقوله تيمور في صفحة ٨٠ « ما زال حديث السماء على تطاول الزمن ، وتراوح الحقب ، وتطور العقول ، هو صاحب السلطان الأول على المشاعر والنفوس ... لطالما سمعنا فلاسفة الفكر ينادون بأن العقيدة الدينية على وشك الانهيار ، ولكننا لا نلبث أن نواجههنا حقائق تسخر من هذا الزعم الموهوم ... إن العقيدة ، مثلها كمثل كرة المطاط ، إذا قذفت بها ورأيتها جادة في هويها إلى الأرض لم تحسب لها من رجوع . ولكنك لا تعتم أن تراها قد وثبت إليك في عنفوانها أقوى مما كانت من قبل ... » .

فأنت ترى أن الرحلة لا تصف المشاهد الحسية فحسب ، بل تذهب إلى أعماق الحقائق الروحية ، فيحدثنا صاحبها عن الفلسفة والعقيدة والإيمان بالله ، والدفاع عن الأديان .

على أننا ننكر على الأستاذ تيمور قوله : إن فلاسفة الفكر ينادون بالإلحاد ، فهي تهمة لصقت بالفلاسفة وهم منها براء . وقد قيل مثل ذلك عن ابن رشد فيلسوف قرطبة ، ووقع في محنة شديدة كادت أن تودي به . على أنا نرى أن الفلاسفة كانوا دعائم العقائد يقوونها بسند الفكر والبرهان ، كما فعل ديكارت في براهينه الرياضية في إثبات وجود الله .

وقد نقلت العبارة السابقة من الكتاب لغرض آخر غير هذا النقد الذي وجهته ، ذلك أني أحببت أن أعرض على القارئ لوناً من أسلوب الكاتب في كتابته .

ولقد صحبت تيمور في قصصه منذ زمن بعيد ، فقرأت له تلك « الأقصوصات » ، ويعنون بذلك القصة الصغيرة ، مثل « مكتوب على الجبين وقصص أخرى » و « أبو علي وقصص أخرى » .

فكنت أعجب به قاصاً ، كما أعجبت به كاتب رحلة . والميزان ومبعث الإعجاب عندى هو تلك اللذة التى تشعر بها عند قراءة هذه القصص ، فلا تكاد تبدأ فى قراءتها حتى تنتهى إلى نهايتها ، دون شعور بملل أو سأم ، بل يدفعنا فيها دافع قوى من الشغف والتلهف على تتمة القصة .

وقد يختلف النقاد فى الحكم على أدب تيمور وقصصه ، ولا أعد هذا الخلاف مطعناً عليه ، فكل أديب مشهور لا بد أن يكون موضع الخلاف بين النقاد ، وكذلك كان شوقى فى شعره ، رفعه بعض الحكام إلى مرتبة الإمارة فى الشعر ، وقال البعض الآخر إنه ناظم لا روح فيه .

يقول النقاد الذين لا يعجبهم أدب تيمور إنه شعبى ينزل إلى مستوى الجمهور لا فى عباراته وأساليبه فحسب ، بل فى ألفاظه .

ونحن نرى أن هذه السهولة السهلة هى التى يتميز بها قلم تيمور ، والتى تجعل له طابعاً خاصاً يميزه عن غيره ،

ولم تمنع السهولة أن يكون صاحبها أديباً ، بل نحن فى حاجة إلى هذا اللون الذى يبعد بنا عن الأدب التقليدى ، وعن ترسل الجاحظ ، وسجع ابن العميد ؛ ذلك لأننا فى عصر يجعل جمال الموضوع فى صدقه وقوة تعبيره ، ولا حاجة بنا إلى التزويق والتأنق والتكلف مما يصرف الكاتب والقارئ معا عن لذة الفكر الخالص .

وهذا الأستاذ أحمد أمين لا يتكلف بل يكتب كأنه يتحدث فيعرض ألوان الفكر الإسلامى منذ فجر الإسلام وضحاه ، فأفاد واستفاد منه الناس فى غير عناء . وهذا المازنى لا يغرب ولا يتأنق بل تحس كأنه يخاطب العامة ، ومع ذلك فهو أديب لم يطعن فى أدبه طاعن ، ولم يقل قائل إن أسلوبه غير بليغ . أليست البلاغة كما قال ابن المقفع « هى التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها فإذا حاول عجز » ...

محمود تيمور إذن من هذا الطراز الذى يجرى قلمه بما يجيش فى صدره ، وما تختلج به نفسه ، وما تراه عينه ، فتقرأ له كأنك تستمع إليه .

وأكبر الظن أنه يصطنع بعض الأساليب العامية المستملحة التى لا تجد لها نظيراً فى الفصحى ، لأنه يريد ذلك ، أو يريد أن يدخل هذه الألفاظ فى قاموس اللغة العربية حتى تندرج فيها . وهذا مذهب لا بأس به .

وهو كذلك يستعمل بعض الألفاظ الجديدة التى استحدثت ، وله بتسجيلها يدفع إليها مع الزمن الحياة . أنظر إليه وقد نزل فى باريس وذهب إلى مقهى « كافيه دلابيه » المشهور إذ يقول « لنتناول قدحاً من تلك القهوة الممزوجة باللبن ، مفخرة هذا المشرب البعيد الصيت ... ولنحظ بجلسة نستعيد فيها ذكريات الماضى المحبب ، ونتقل النظر فى الغادين والرائحين من أهل باريس ، نتملى بما يبدونه من أناقة ورشاقة وظرف ، وهم يتزاحمون على طوار الطريق ... »

وفى هذه العبارة التى ننقلها لفظتان جديدتان ، المشرب وهو بمعنى المقهى ، والطوار أى الترتوار .

وعلى هذا النسق تجد عشرات وعشرات من الألفاظ يجريها فى أثناء التعبير ، فلا تحس فيها غضاضة أو تكلفا . وهذا فضل لا ينكر فى تذليل اللغة العربية لألفاظ الحضارة الحديثة .

وبعد ، فإنى أحب للقارئ أن يغتبط بمتن هذا الكتاب ، ليطير به فى جواء الفكر ، وينقله إلى الدنيا الجديدة ليسعد فيها بعض لحظات .

أحمد فؤاد الأهوانى

(الرسالة) : آفة النقد عندنا الترديد والتقليد . فالدكتور الأهوانى يردد نغمة قديمة لم يبق لها فى الآذان رجع . كان النقاد يأخذون على أسلوب الأستاذ تيمور فى نتاجه الأول أنه أقرب إلى العامية فى ألفاظه وتراكيبه ، فأنقش هذا الرأى فى أذهان الناس ، وصرفهم الكسل العقلى عن استئناف النظر فيه بالموازنة والنقد ، فلم يلاحظوا تطور أسلوب الكاتب على إدمان الجهد وكر السنين ، من الابتذال إلى السمو ، ومن السهولة إلى الجزالة ، فيما كتب بعد ذلك من مقالات وقصص . ومن أثر هذا الجمود العقلى أن الناس قد اعتقدوا فى كل كاتب من كتابنا ، وزعيم من زعمائنا ، رأياً لا يتحولون عنه ولا يغيرون منه . فلو كان عندنا نقد يجارى التطور ، ولنا رأى يساير التهوض ، لحكمنا على الكاتب بآخر ما يقول ، وعلى الزعيم بآخر ما يعمل . ويظهر أن الأستاذ الناقد يخلط بين السهولة والابتذال ؛ فإن السهولة من الصفات الجوهرية للبلاغة ، ولا يعيبها على الكاتب إلا مجذوب من مجاذيب الصوفية ، أو مجنون من مجانين الربزية